إثبات نزول الله إلى السماء الدنيا

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-:

(مِثْلُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١]).

(الشرح)

هذه شروع من المؤلف في ذكر النصوص الحديثية الدالة على إثبات الصفات الربانية. فمنها هذا الحديث الذي بلغ مبلغ التواتر، وهو حديث النزول، فقد رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم نحو ثمان وعشرين صحابيًا. وقد اعتنى أبو عثمان الصابوني، رحمه الله، بجمع طرقه في كتابه الكبير "الانتصار"، ولخصها في "عقيدة السلف وأصحاب الحديث"[٢].

قوله: (يَنْزِلُ رَبُّنَا): أسند النزول إلى ربه، لم يُسنده إلى غيره، فهو فعله وصفته.

قوله: (السَمَاءِ الدُّنْيَا): سُميت بهذا الاسم لأنها أدنى السماوات إلى الأرض. والسماوات سبع طباق، قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} [الملك: ٣].

قوله: (كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ): دل ذلك على التكرار، والتوقيت. ويعرف ثلث الليل الآخر بأن يقسم الإنسان ما بين مغيب الشمس إلى طُلوع الفجر أثلاثًا، فالقسم الأخير منه هو ثُلث الليل الآخر. وهو وقت السحر.

قوله: (فَيَقُولُ): معطوف على "ينزل"، فالقائل هو الله عز وجل، بعد نزوله.

قوله: (مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ): جواب الشرط في المواضع الثلاثة منصوب بـــــ "أن" مضمرة. والدعاء أعم من السؤال؛ فإنه يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة. فيكون قوله من يسألني، من يستغفرني، من باب عطف الخاص على العام.

---

[١] أخرجه البخاري: رقم (١١٤٥)، ومسلم: رقم (٧٥٨).

[٢] انظر: عقيدة السلف وأصحاب الحديث: (١٩٨-٢٣٦)، وقد رواه بسنده عن أبي هريرة من سبع طرق، وعن نحو عشرة من الصحابة سواه.

فدل هذا الحديث على إثبات النزول الرباني إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثُلث الليل الآخر؛ فكان لزامًا على كل من بلغه الحديث أن يُثبت لله ما أثبته النبي، صلى الله عليه وسلم، لربه عز وجل، من النزول الحقيقي اللائق بجلاله وعظمته، الذي لا يُماثل نُزول المخلوقين، ولا يجوز أن يُتعرض لهذا النزول بأي لون من ألوان التمثيل والتكييف، ولا بأي لون من ألوان التحريف والتعطيل؛ كما هي قاعدة أهل السنة والجماعة في جميع أسماء الله وصفاته.

غير أن أهل البدع شرقوا بهذا الحديث وأمثاله من أحاديث الصفات، وزعموا أن إثباته يُوجب الوقوع في التمثيل والتكييف! وما هم بأعلم من الله بالله، ولا أعلم بالله من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحسن منهما قِيلًا، ولا أصدق منهما حديثًا، ولا هم أغير من رسول الله صلى الله عليه وسلم على ربه عز وجل، ولا هم أنصح منهم للأمة منه. ثم حملهم ما استظهروه من اعتقاد التمثيل على الفرار إلى التعطيل، أو ما يسمونه "التأويل"، وإنما هو تحريف، فزعموا أن الذي ينزل: أمره، أو رحمته، أو ملك من ملائكته! والرد عليهم من وجوه:

الأول: أن النبي صلى، الله عليه وسلم، أسند النزول إلى ربه، ولم يسنده إلى أمره أو رحمته أو ملك من ملائكته. ولو شاء النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوله لقاله، لكنه أضاف النزول إلى الله سبحانه.

الثاني: أن طريقتهم تقتضي أن في الكلام حذفًا، الأصل في الكلام عدم الحذف، ومن ادعى الحذف فعليه الدليل. فقوله: ينزل ربنا؛ كقوله: يغفر ربنا، يرحم ربنا.

الثالث: أن هذا الذي ينزل يقول: (مَنْ يَدْعُونِي؟ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي؟ فَأَغْفِرَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي؟ فَأُعْطِيَهُ)، ولا يُمكن أن يصدر هذا إلا من الله عز وجل، ولا يُمكن أن يصدر من ملك، ولا من رحمة، ولا من أمر، هذا وعد لا يصدر إلا ممن يملكه، فهو الذي يستجيب الدعاء، وهو الذي يُعطي السائلين، وهو الذي يغفر الخطايا. قال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} [النمل: ٦٢]، وقال نبيه صلى الله عليه وسلم: (فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ)[١]

الرابع: أن نزول أمره لا يختص بثُلث الليل الآخر، بل ينزل في كل حين، قال تعالى: {كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ} [الرحمن: ٢٩].

الخامس: أي فائدة للعباد أن يكون مُنتهى نزول رحمته إلى السماء الدنيا؟

وبه يتبين أن كل من حمل كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم على غير مراد الله ورسوله، فإن النص يعود حُجة عليه لا له! وهذا مما أودعه الله تعالى من العصمة في كلامه وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم.

---

[١] أخرجه البخاري: رقم (٦٣٠٦).

ولا يجوز أن يُقيد هذا النزول بالقُيود التي أحدثها المبتدعة. قال الحافظ عبد الغني المقدسي، رحمه الله: (روينا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: كنت أنا وأبي عابرَين في المسجد، فسمع قاصًا يقص في حديث النزول، فقال: إذا كان ليلة النصف من شعبان ينزل الله، عز وجل، إلى السماء الدنيا، بلا زوال ولا انتقال ولا تغير حال، فارتعد أبي، رحمه الله، واصفر لونه، ولزم يدي فأمسكته حتى سكن، ثم قال: قف بنا على هذا المتخرص، فلما حاذاه قال: يا هذا! رسول الله صلى الله عليه وسلم أغير على ربه منك. قل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. وانصرف)[1]. ومقالة هؤلاء تفضي إلى "التفويض"، الذي يحيل الصفة إلى ألفاظ ليس تحتها معنى.

مسألة: يُورد بعض الناس شبهةً ويقول: إن ثُلث الليل يختلف من موضع إلى موضع، ويتناوب على الكرة الأرضية كتناوب الليل والنهار، فيلزم من ذلك أن يكون الله نازلًا طُوال الوقت!

والجواب: أن نقول: الله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]؛ فلا يُقاس بخلقه وإذا قال النبي، صلى الله عليه وسلم، كلامًا وثبت ثبوتًا قطعيًا فلا يُمكن أن يُعارض أو يُقابل بالأُمور التي يعهدها الناس من مُدركاتهم، فالذي نطق بهذا لا ينطق عن الهوى، فيجب على كل مؤمن أن يعتقد بنزول الله سبحانه وتعالى في الثُلث الأخير.

والأثر المسلكي لإيمان المؤمن بنزول الرب، جل وعلا، ما يحصل له من الشعور بقرب الرب العظيم، والتعرض لنفحات الله الكريم! ولو قيل للناس إن السلطان سيمنح أعطيات وهبات لمن يقف عند بابه آخر الليل، لتقاطر الناس زرافات ووحدانًا، وتزاحموا لنيل لعاعة من الدنيا! فكيف بالمالك الواجد الماجد الذي لا تفنى خزائنه، ولا يخلف الميعاد؟! ورغم ذلك تجد أكثر الناس وقت التنزل الإلهي يغط في نوم عميق، سوى نفر قليل اصطفاهم واجتباهم، وبعثهم لمناجاته، كما وصفهم بقوله:{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} [السجدة: ١٦]، وقوله: {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات: ١٧، ١٨]، وقوله: { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الزمر: ٩].

---

[1] عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي: (ص: ٣٥-٣٧).

إثبات الفرح لله عز وجل

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ» الْحَدِيثَ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

(الشرح)

الحديث بتمامه: (لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِه حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِه بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِه، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ)[1].

هذه صورة تُمثل غاية الفرح لإنسان أشرف على الهلكة، ويأس من النجاة، في صحراء دويّة، ذهب طعامه وشرابه مع راحلته، فساقها الله، تبارك وتعالى، إليه حتى علق خطامها بالشجرة التي نام تحتها، فقبض عليه وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. وإنما أراد أن يقول: اللهم أنت ربي وأنا عبدك. فأخطأ من شدة الفرح. فالله أشد فرحًا بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته.

والحديث دليل على إثبات صفة الفرح لله عز وجل، وليس كفرح المخلوقين، فلله فرحٌ يليق به، وللمخلوق فرح يليق به، ففرح المخلوق تعتريه خفة وطيش وذهول، والله منزه عن ذلك. فهناك قدر مُشترك في الأذهان حول معنى الفرح، أما اللوازم التي تصاحبه فتختلف بحسب من أضيف إليه. بل إن هذا الاختلاف يقع بين المخلوقين أنفسهم؛ فمن الناس من يفرح بقلبه ولا تظهر عليه آثاره، ومن الناس من يستخفه الفرح ويفقد صوابه. فلا يلزم من الاتفاق في الاسم الاتفاق في الكنه والكيفية.

وإذا كان نبينا، صلى الله عليه وسلم، أثبت لربه هذا الوصف؛ فالواجب علينا أن نُثبت ما أثبت النبي، صلى الله عليه وسلم، لربه، ولا نستنكر ذلك، ولا نستشنعه؛ فإنه، صلى الله عليه وسلم، أكثر

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٦٣٠٩)، ومسلم: رقم (٢٧٤٧) واللفظ له.

الناس تعظيمًا لجناب الله، وأغيرهم على ربه، تبارك وتعالى؛ فلا يتظاهرنّ أحدٌ بأنه أغير على الله من رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فيقول: المراد بفرح الله كذا؛ بلا بينة، ولا أثارة من علم!

إثبات الضحك لله تعالى

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ؛ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ؛ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[1]).

(الشرح)

سأل الصحابةُ النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فَقَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: (يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ عَزّ وَجَلّ فَيُسْتَشْهَدُ، ثُمّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى الْقَاتِلِ، فَيُسْلِمُ، فَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزّ وَجَلّ فَيُسْتَشْهَدُ)[2].

دلّ هذا الحديث على إثبات صفة الضحك لله تعالى كما يليق به، لا يشبه ضحك المخلوقين، ولا تلزمه لوازمه البشرية. وهذا الضحك ناشئ عن اجتماع أمرين لا يجتمعان عادة؛ قاتل ومقتول وكلاهما في الجنة! فله سبب متعقّل.

وقد أنكر المتكلمون صفة الضحك، وحملوها محامل متعسفة بدعوى أن الضحك يصاحبه خفة وطيش وقهقهة، ويستلزم وجود لسان وأسنان وشفتين! وتلك حجة داحضة، فإن الضحك الذي وصفوه ضحك المخلوق، والله تعالى ليس كمثله شيء، فله ضحك يليق به. ولولا أن نبينا صلى الله عليه وسلم أخبرنا بأن الله يضحك ما قلنا به. لكن القوم شبهوا أولًا، وحرفوا ثانيًا. أما من قدر الله حق قدره فلم يخطر بباله، ولم يدر بخياله شيءٌ من هذه اللوازم. ولهذا لم تنبُ هذه الكلمة على أسماع الصحابة الكرام، ولم يستنكروها، مع أنهم أعظم توقيرًا وتعظيمًا لله عز وجل.

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٢٨٢٦)، ومسلم: رقم (١٨٩٠).

[2] أخرجه البخاري: رقم (٢٨٢٦)، ومسلم: رقم (١٨٩٠)، واللفظ له.

إثبات العجب والضحك لله تعالى

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ؛ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ»[١]، حَدِيثٌ حَسَنٌ).

(الشرح)

قوله: (عَجِبَ رَبُّنَا): العجب ينشأ أيضًا من اجتماع أمرين لا يجتمعان عادة. فقد دل الحديث على إثبات صفة العجب لله تعالى، وهو مما يُثبته أهل السنة والجماعة ويأباه أهل البدع؛ قالوا: لأن العجب لا يكون إلا عن جهل، وعند التأمل يجد الإنسان أن العجب يمكن أن يقع عن جهل، ويُمكن أن يقع عن اجتماع أمرين لا يجتمعان عادة. مثال ذلك: لو أن معلّمًا يعلم من أحد الطُلاب الإهمال، وعدم الاجتهاد، ثم بعد إجراء الامتحان وجد أنه أحسن الجواب، وحصل على درجة النجاح، فإن هذا يُوجب له عجبًا، فحصل عجبٌ مع العلم؛ فلا يلزم أن يكون العجب ناشئًا عن الجهل، بل قد يكون ناشئًا عن اجتماع أمرين لا يجتمعان عادة، كما في هذا الحديث.

قوله: (قنوط عباده): القنوط: أشد اليأس؛ وحصل لهم ذلك جراء تأخر نزول المطر.

قوله: (وَقُرْبِ غِيَرِهِ): قُرب تغييره الحال من قحط إلى خصب.

قوله: (أَزِلِينَ): مُمحلين؛ قال ابن الأثير، رحمه الله: (الأزل: الشدة والضيق، وقد أزل الرجل يأزل أزْلًا، أي صار في ضيق وجدب)[٢].

قوله: (فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ): سبب عجبه وضحكه سبحانه: نظره إليهم على هذه الحال من الكآبة والسآمة واليأس البالغ حد القُنوط، مع علمه بقرب ما يتمنون من نزول المطر. فاجتماع هذين الأمرين من دواعي العجب والضحك. ومما يُقرب لك ذلك: أن ترى طالبًا قلقًا على

---

[١] أخرجه أحمد: رقم (١٦٢٠٦) بلفظ مطول وفيه: (وَعَلِمَ يَوْمَ الْغَيْثَ، يُشْرِفُ عَلَيْكُمْ آزِلِينَ آزِلِينَ مُشْفِقِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ غِيَرَكُمْ إِلَى قُرْبٍ). وجوّد ابن القيم إسناده. زاد الميعاد: (٣/ ٥٩١). وفي لفظ آخر: (ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غِيَرِهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَيَضْحَكُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا). كما عند أحمد وغيره، وسوف يخرج لاحقًا.

[٢] النهاية في غريب الحديث: (١/ ٤٦).

نتيجته، لا يعلم هل اجتاز أم لم يجتز؟ وهو يضرب أخماسًا بأسداس، ويُقبل ويُدبر، وأنت تعلم أنه قد نجح، فأنت تضحك لاجتماع الأمرين؛ قلقه، وحُصول مُراده، فيكون هذا مما يبعث على الضحك. والله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: ١١]، {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الروم: ٢٧]. والاشتراك يقع في أصل المعنى لا في لوازمه الناتجة عن الإضافة.

وهذا ما فهمه الصحابة، ولهذا قَالَ أَبُو رَزِينٍ، رضي الله عنه: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَ يَضْحَكُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا) ([1])، فلم يقل: الضحك يلزم منه شفتان ولسان ولهوات وأسنان، وينشأ عنه خفة! مما يدعيه المتكلمون الذين حرفوا الكلم عن مواضعه، والنصوص عن ظواهرها، بل قبل الخبر قبولًا حسنًا، ولم ير أن ذلك مُوجبًا لتشبيه الله بخلقه، بل تفاءل به، ورجا خيره. وهذا من معقولات بني آدم، فلو كان لك طلب لدى مُدير دائرة من الدوائر، فأقبلت عليه، فوجدته مُستبشرًا متهللًا يضحك، فإنك تتفاءل بحصول مرادك. ولو أقبلت عليه ورأيته مُقطبًا عابسًا لوقع في نفسك أن أمرك لا يتم.

فدل هذا على أن لربنا سبحانه وتعالى عجب يليق به، وضحك يليق به، لا يجوز لأحد أن ينكرهما أو يستشنعهما. وإنما يقع ذلك لمن سبقت لوثة التمثيل إلى قلبه، ففر منه إلى التعطيل أو التحريف، أما من ظن بالله الظن الحسن، وتقبل الخبر قبولًا حسنًا، واعتقد لله ما يليق بجلاله، وأثبت إثباتًا بلا تمثيل، ونزه الله تنزيهًا بلا تعطيل فقد أنجح وأفلح.

---

[1]) أخرجه أحمد: رقم (١٦٢٠١)، وابن ماجه: رقم (١٨١)، وأبو داود الطيالسي: رقم (١١٨٨).

قال السندي: (في حاشيته على سنن ابن ماجه حديث حسن): (١/ ٧٨)، وقال البوصيري: هذا إسناد فيه مقال وكيع ذكره ابن حبان في الثقات وذكره الذهبي في الميزان وباقي رجال الإسناد احتج بهم مسلم. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (١/ ٢٦).

إثبات القدم لله تعالى

قال المؤلف -رحمه الله تعالى-:

(وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؛ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا -وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا - (١) قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ؛ وَتَقُولُ: قَط قَط»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ)[٢].

(الشرح)

قوله: (وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ): جهنم اسم من أسماء النار، قِيل سُميت بذلك لجُهومتها وظُلمتها. قال ابن الأثير: (وسميت بها لبعد قعرها)[٣]

قوله: (يُلْقَى فِيهَا): يعني يُلقى فيها أهلها، فإنهم يُلقون فيها دفعات، قال تعالى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} [الملك: ٨]، وهي تطلب المزيد، كما قال ربنا: {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ} [ق: ٣٠]، وقد جاء في الحديث: (اخْتَصَمَتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِمَا، فَقَالَتِ الجَنَّةُ: يَا رَبِّ، مَا لَهَا لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، وَقَالَتِ النَّارُ: - يَعْنِي - أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي، أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا)[٤].

قوله: (حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا -وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا-قَدَمَهُ): وقوله: (رب العزة) من إضافة الموصوف إلى الصفة.

---

١) رواية (عليها) أخرجها عبد الله بن أحمد في الزوائد على المسند: رقم (١٣٩٦٨).

٢ أخرجه البخاري: رقم (٦٦٦١)، ومسلم: رقم (٢٨٤٨).

٣ النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٢٣).

٤ أخرجه البخاري: رقم (٧٤٤٩)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٨٤٦).

قوله: (فِيهَا –وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا–قَدَمَهُ): وفي رواية عند مسلم: (حَتّى يَضَعَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، رِجْلَهُ)[١] هذا موضع الشاهد، إذ فيها إثبات صفة القدم أو صفة الرجل له تعالى.

قوله: (فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ): أي ينضم ويجمع بعضها إلى بعض وتنقبض، فتصطك على أهلها.

قوله: (قطْ قطْ): قال ابن الأثير: (بمعنى حسب. وتكرارها للتأكيد. وهي ساكنة الطاء مخففة. ورواه بعضهم: "فتقول: قطني قطني" أي حسبي)[٢]، وبذلك يتحقق ما وعدها الله تعالى به من ملئها.

فدل الحديث على إثبات القدم أو الرجل لله، سبحانه وتعالى، على الوجه اللائق به، فلا يجوز لكائن من كان سَمِعَ هذا الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما، الدال على إثبات هذا الوصف الذاتي الخبري لله تعالى، أن يتعرض له بشيء من التمثيل، أو التكييف، ولا أن ينزع إلى شيء من التعطيل والتحريف؛ كما زعم أهل الكلام، الذين تكلفوا مقالات مُغربة تنبو على السمع، ويأباها العقل؛ فراراً من إثبات الصفة.

نقل الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي: (وقال أهل التأويل: القدم هنا يحتمل أن يكون المراد به: من قدّمهم الله للنار من أهلها. وكل شيء قدّمته فهو قَدَم. والعرب تطلق القدم على السابقة في الأمر. وقال النضر بن شميل في معنى قوله: "حتى يضع الجبار فيها قدمه": أي من سبق في علمه أنه من أهل النار. ... وقال بعضهم: القدم خلق من خلق الله تعالى، يخلقه يوم القيامة، فيسميه: قدمًا، ويضعه في النار فتمتلئ منه. ... وأما الرِجل: فالعرب تسمي جماعة الجراد رِجْلًا. ... وأما الجبار هنا: فقال بعضهم: يحتمل أن يكون أريد به الموصوف بالتجبر من الخلق)[٣].

ولا يخفى ما في هذا الكلام من الإغراب والتعسف، وليّ أعناق النصوص. وما كانوا بحاجة إلى ذلك، ولا اضطروا إليه، لولا المقدمات الفاسدة التي ارتهنوا لها، فشقُوا بالقرآن والسنة، ولم يرفعوا بهما رأسًا. وكان يسعهم ما وسع السابقين الأولين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من الإثبات والإقرار والإمرار، مع اعتقاد تنزيه الرب عن النقائص، والعُيوب، ومُماثلة المخلوقين. فإن المخبر بذلك ليس فُلان أو علان، بل رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي وصفه ربه بقوله: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: ٣، ٤]. وهو أعلم الناس بربه، وأصدقهم قِيلًا، وأحسن حديثًا، وأفصحهم لسانًا، وأبينهم بيانًا. فكيف يجرؤ أحد أن يستدرك عليه، أو يتعقبه! ما هذه بغيرة إيمانية، ولكنه ضلال مبين، وهوى متبع.

---

[١] أخرجه مسلم: رقم (٢٨٤٦).

[٢] النهاية في غريب الحديث: (٤/ ٧٨-٧٩).

[٣] أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات: (١٧٨-١٨٠).